

دور الضباط الأمريكيين فى الحملة المصرية الحبشية (١٨٧٥ - ١٨٧٦)

وخروجهم من الجيش المصرى

أ.د/ محمود حلمى مصطفى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة المنيا

ترجع أسباب الحملة المصرية الحبشية المعروفة باسم حملة رانتب فى أصولها إلى الوقت الذى انتهج فيه إسماعيل سياسة التوسع بقصد القضاء على تجارة الرقيق فى ممتلكاته الإفريقية ودعم سلطة الحكومة فى تلك البقاع وبسط نفوذه على البلاد التى كانت موطناً لهذه التجارة غير المشروعة فى النيل الأبيض وأعالى النيل ودارفور وبوغوص وساحل الصومال وهرر وعلى هذا الأساس فقد استرشد فى سياسته هذه بامتلاك مصوع وسواكن وتثبيت حقوق سيادته فيها وعلى كل المنطقة القريبة من باب المندب وسارت سياسته هذه قدما بضم إقليم بوغوص الواقع بين تاكا ومصوع وذلك بعد أن كان الأحباش قد اتخذوها منذ عهد محمد على قاعدة للنهب والسلب والاعتداء (١) على الأراضى الإقليمية المصرية وصارت هذه قاعدة للاعتداء المستمر من جانب الأحباش ومن ثم صار غزو "بوغوص" وضمها للأمالك المصرية لا مندوحة عنه لوضع حد لتلك الاعتداءات ولحماية الحدود المصرية (٢) ثم توجت سياسته فى هذا المضمار بالحصول على ميناء زيلع من الباب العالى على الساحل الصومالى لقاء دفع مبلغ ١٥٠٠٠ جنيه سنوياً (٣) وكان الاستيلاء على زيلع -على حد قول مستر بيرزلى- قنصل عام الولايات المتحدة فى مصر- أمراً بالغ الأهمية ؛ لأنه يضع كل ساحل البحر الأحمر تحت السيادة المصرية (٤) حيث إنها تواجه عدن ومن المعروف أن الولايات المتحدة كانت تحتكر تجارة البن فى البحر الأحمر فى ذلك الوقت وعلى هذا فقد كانت هذه ترقب التوسع المصرى

(١) From Beardsley to fish : No (19) (16-10-1872) Vol 6 P

Abdin Corresp . Fran . 9- If 20899 . Mossowa (15-9-1872)

Munzinger a' Khairi Pacha .

Borelle : 0 : choses Politiques d' Egypte (1883 - 1895) Paris 1895 . P 414 . (٢)

Bolli : OP . Cit . P 414 . (٣)

From Beardslry to fish . no (337) (17-7-1876) vol 10 P 145. (٤)

على ساحل البحر الأحمر باهتمام بالغ بدافع من مصالحها المتزايدة فى عرض ذلك البحر ثم حدث بعدئذ أن استولت القوات المصرية بقيادة رؤوف باشا على هرر (١) .

وكان من نتائج هذه السياسة التوسعية من جانب الخديوى إثارة مخاوف الأحباش (٢) رغم بذل الجهود الصادقة فى سبيل المحافظة على العلاقات الودية بين مصر والحبشة . ومبعث هذا الخوف أن الحبشة صارت مطوقة بالأمالك المصرية من كل جهاتها تقريبا ومن ثم أخذت تستشعر منذ احتلال مصر لإقليم بوغوص على وجه الخصوص أن هذا الاستيلاء على ذلك الإقليم إنما هو بمثابة تهديد لها باجتياحها واعتبرته اعتداء على أملاكها وترتب على ذلك أن تدهورت العلاقات السياسية بين البلدين تدهورا سريعا منذ أن تناخمت الحدود بين مصر والحبشة .

ولم تكن مسألة امتلاك بوغوص فى حقيقة الأمر وواقعه إلا ذريعة وتكأة اتخذتها الحبشة لتحقيق أطماعها القديمة التى تهدف إلى امتلاك مصوع أو أمفيل (٣) . وتلك رغبة كانت تجيش فى صدر الحبشة منذ أيام تيودور كاسا ، الذى أخذ يهدد بغزو السودان وتحويل مجرى النيل للإضرار بمصر وإخضاعها لسيطرته حتى يحقق أطماعه والاستيلاء على سواكن ومصوع ميناءى السودان وباقى ساحل البحر الأحمر على اعتبار أن هذه الأراضى كانت تابعة للحبشة وذلك لكى يتسنى له شق طريق إلى البحر المنفذ الطبيعى للحبشة (٤) وذلك لأنه لم يكن يعترف أبدا بتبعية هذا الساحل للدولة العثمانية ويحدوه اعتقاد راسخ بأن بلاده تصل إلى ساحل البحر الأحمر (٥) .

(١) From Beardsly to fish . no (338) (26-11-1875) vol 11 P 55.

(٢) From Beardsly to fish . no (364) (29-9-1875) vol 11 P 29.

(٣) دفتر ٤٠٨ صدر ديوان المعية وثيقة رقم ٤٠٦ فى ١٧ جمادى سنة ١٢٦٣ (٣ يونيه سنة ١٨٤٧) .

(٤) C. R. A. Enclosure in No (229) . (25-6-1855) P 149 .

C. R. A. No (236) Bruce to Clarendon (17-2-1856) .

C. R. A. No (229) .

من تقرير واکر القائم بعمل نائب القنصل الإنجليزى فى مصوع عن تجارة الحبشة سنة ١٨٦٣ -
دكتور شكرى : مصر والسودان ص ٨٣ .

Beke . C.T : The British Capives in Abyssinia P 242 - De Rivoyre : (٥)

Mer Rouge et abyssine P 114 .

رأت الحبشة -إنن- تحقيق أطماعها القديمة بعد أن صار أمر اتصالها بالعالم الخارجى يتم عن طريق السلطات المهيمنة على هذه الموانى وذلك منذ أن وضعت الدولة العثمانية يدها على سواكن ومصوع وفرضت نفوذها على كل الساحل فخضعت بذلك تجارتها -أي الحبشة- من صادرات وواردات الرسوم الجمركية التى يفرضها الباب العالى أو من يمثله فى حكم الساحل ولم تكن البضائع أو السلع هى كل ما يمر بمصوع أو سواكن بل كذلك الحاجج الأحباش الكثيرون الذاهبون إلى القدس والقادمون منها إلى جانب الكثرة الغالبة من الرحالة الأوربيين المبشرين بالمذاهب المسيحية المختلفة .

ونشئت الحبشة مؤازرة الدول الأوربية لها فى مساعها هذا ومعاونتها فى الحصول على ميناء على ساحل البحر الأحمر عن طريق التوسط لدى الدولة العثمانية منتهزة فرصة تعيين مستر بلودن Blowden قنصلا لانجلترا فى مصوع وكان هذا من أشد المتحمسين لثيودور والمؤيدين لدعواه (١) ويشاطره فى ذلك لورد كلارندون Clarendon وزير خارجية انجلترا ويهدفان من وراء مؤازرة ثيودور ورعاية مصالح انجلترا وإبرام اتفاق تجارى معه وتبادل السفارات وإقامة القنصليات بين انجلترا والحبشة (٢) ويتوج كل ذلك قيام ثيودور بتعيين حاكم أوربى لميناء مصوع بطبيعة الحال يكون هذا الحاكم انجليزيا لأن انجلترا هى الدولة التى قدمت له يد العون ولا أقل - وذلك على حد اعتقادها - من الاعتراف بهذا الجميل . كما لا يخفى أيضا ما يترتب على هذا التعيين من إلغاء الضرائب على البضائع الإنجليزية واستتباب الأمن على الحدود الأمر الذى لا يمكن أن يتوفر إلا إذا تحنت الدولة العثمانية عن تلك الممتلكات التى تحتلها بساحل البحر الأحمر وأن هذا الساحل -على حسب اعتقادها- سيعزل ميدانا للغارات المتبادلة مع الأحباش وهذا ليس فى صالح انجلترا التى تسعى لإبرام اتفاق تجارى مع الحبشة فى وقت كانت تجارة انجلترا مزدهرة ورائجة فى عرض البحر الأحمر لاسيما التجارة الوافدة من زنجبار وغيرها من الأقاليم الإفريقية (٣) وأضحت المراكب

(١) Roger Acton : The Abyssinia Expedition and the Life and reign

of King Theodore P. 15 .

C.R.A. No (177) P 94 - From Bmpwden to Clarendon (10-7-1854) - (٢)

roger : OP ; cit P. 15 .

C.R.A. Enclosure in No (227) P 149 (25-6-1855) - Hotten . J.C: (٣)

Abyssinia and Its people or life in the land of Prester John. P 240 .

الإنجليزية والأمريكية ترتاد مياه هذا البحر منذ وقت مبكر حاملة الرقيق من تلك البقاع (١) وإلى جانب ذلك كله مسعاها لتأمين طريق التجارة إلى الهند عبر مصر وفي عرض البحر الأحمر بعد أن توصلت إلى إقناع الوالى لمد خط حديد (القاهرة - السويس) ولكل هذا فقد طلبت إنجلترا من مستر ستراتفوردى رد كليف سفيرها فى القسطنطينية بأن يعرض على الباب العالى موضوع تنازله عن مصوع لثيودور الثانى حتى يصبح للحبشة ميناء على الساحل ويتسنى عقد اتفاق تجارى مع الحبشة (٢) .

غير أن سياسة إنجلترا هذه إزاء تأكيد ثيودور الثانى قد اعترافا تغير ظاهر إثر تولى لورد راسل Russel منصب وزير الخارجية خلفا للورد كلارندون حيث أثر سياسة عدم التدخل فى هذا الموضوع وعلى هذا الأساس كلف مستر بلودون بترك الحبشة والعودة إلى مقر وظيفته بمصوع (يناير سنة ١٨٦٠) (٣) وكان سبب هذا التغيير توجسها خيفة من نجاح فرنسا فى السيطرة على منفذ على البحر الأحمر عن طريق الاتفاق مع ثيودور فى وقت كانت قد ظفرت فيه بتنفيذ مشروع قناة السويس ومما أيد هذا الاعتقاد لدى الدوائر السياسية الإنجليزية قيام فرنسا بتعيين مسيو ليجيان قنصلا لدى الحبشة وتكليفه بالعمل على تنفيذ هذه السياسة (٤) .

وعندما أدركت الحبشة عدم جدية إنجلترا فى موازرتها ولت وجهها شطر فرنسا وذلك بعد أن كان مسيو ليجيان قد نجح فى لفت نظر " ثيودور " إلى التقرب إلى فرنسا وبادر هذا بإيقاد مبعوث إلى نابليون الثالث يطلب منه موازنة فرنسا له ضد مصر فى السودان والسعى لدى الباب العالى للحصول على جزء من ساحل البحر الأحمر يشمل زولا ومصوع ولكن عاد المبعوث بخفى حنين ؛ وذلك لأن فرنسا كانت فى هذا الوقت جد حريصة على إنجاز مشروع قناة السويس فهى وإن كانت فى بادئ الأمر لم تؤيد المشروع بصفة رسمية إلا أنها تشجعه وتعطف عليه لما فيه من مصلحة كبيرة لفرنسا وعلى هذا الأساس رأت عدم إثارة عراقيل فى سبيل تنفيذه ولم يسع الإمبراطور الفرنسى الذى كانت تربطه بمصر روابط صداقة متينة إلا

(١) Elton Frederic : Thavels and Researches Among The Lapes and Mountains of Eastern and Central Africa (1879) P. 3 .

(٢) C.R.A. No 228 P. 154 From Clarendon to Blowden (27-11-1855) .

(٣) Roger : OP Cit P 15- C.R.A. No (403) P 192 - From Russel to Blowden (181860)

(٤) C.R.A. Enclosure 2 in No 34 P 213 - (8-1-1863) A Report by Beke .

إبلاغ ثيودور الكف عن القيام بالصدام والاحتكاك بالقوى المحيطة به وحماية الإرساليات الكاثوليكية (١) .

ويكتشف من كل هذا أن الحبشة كانت تسعى دون جدوى لتأمين مواصلاتها واتصالها بالعالم الخارجى عن طريق الحصول على ميناء على ساحل البحر الأحمر وسارت الأمور تترى والحوادث تباعا حتى ما لبث ثيودور أن جلب على نفسه عداة انجلترا حتى كان القضاء عليه (١٨٦٨) إيان حملتها ولم تلبث الحبشة أن صارت مسرحا للمنازعات الداخلية والحروب التى قامت بين الطامعين فى العرش وذلك ابتداء من (١٨٦٨-١٨٧٤) إلى أن تمكن يوحنا الرابع من ارتقاء العرش ومن ثم أخذت الحبشة تطالب من جديد بالحصول على منفذ على ساحل البحر الأحمر (٢) وظل يوحنا يردد مسألة اغتصاب مصر لميناءى " زولا وأمفيلا " وفرض القيود المشددة على تجارته المارة بمصوع وأنه أصبح محاصرا من المصريين الذين استولوا على كل الموانئ وحرموه من الاتصال الخارجى (٣) وذلك على الرغم من تنفيذ مزاعمه وادعاءاته فى هذا الساحل وعلى الرغم من إيذاء مصر رغبتها فى الاتفاق معه على تسهيل مرور التجارة الحبشية إلى الساحل وفق شروط مرضية (٤) والعيش فى وئام وسلام مع الحبشة وأنها لا تبغى إطلاقا سوى إقامة العلاقات الودية مع جيرانها وخاصة الأحباش التى تكن لهم كل ود واحترام لحقوقهم كاملة (٥) .

وكان من الطبيعى عندما تعددت حوادث الاعتداء على الحدود بين البلدين حتى صارت على حد قول محافظ مصوع لا يمكن الصبر عليها (٦) والتجاء يوحنا إلى فرض ضريبة مضاعفة على التجار الذين يريدون إرسال بضائعهم إلى مصوع (٧) كان من الطبيعى بعد أن تفاقم الحال على تلك الصورة وذلك نتيجة طبيعية بعد أن تتاخمت الحدود وصارت القبائل

(١) Douin : OP. Cit . T.I. PP. 121-122 .

(٢) Loring : OP. Cit. P. 289 .

(٣) De Cosson : The Cradle of the Blue Nile Vo. II. P. 42 .

(٤) Shukry : Op. Cit. P. 261-262 - Douin T. II. P. 379 .

(٥) Douin : Op. Cit. T. II. PP. 416 - 417 - Shukry Op. Cit. 263 - Do Cosson

Op. Cit ; Vol. II. P. 40 .

(٦) دفتر ٣٣ عابدين واردة تفرغات صورة التفراف العربى بالشفرة رقم ٢٩٦ ص ٤٠ فى ٢١ شعبان سنة ١٢٩٢ من محافظ مصوع إلى خيرى باشا .

(٧) دفتر ٣٣ عابدين واردة تفرغات صورة التفراف العربى بالشفرة رقم ٩٧ ص ١٦ فى ١٩ شعبان سنة ١٢٩٢ من محافظ مصوع إلى خيرى باشا .

النازحة بتلك الجهات دائمة التنقل وكانت هذه كثيرا ما تقوم بالاعتداء على جيرانها ومما علون على ذلك أيضا أن الأحوال الداخلية بالحبشة ذاتها لم تكن مستقرة حتى تستطيع الحكومة المركزية وضع حد لتلك الاضطرابات وكان مظهر هذا القلق الذي ساد على الحدود التجاء كثير من زعماء الحبشة إلى مصر مطالبين بمعونتها وتعريضها ضد بعضهم بعضا وكان من بين تلك العوامل التي أدت إلى زيادة حدة التوتر على الحدود موقف سارزك (١) (وكيل قنصل فرنسا) العدائي من مصر وانتقاده لسياسة الحكومة المصرية وإيفار صدر يوحنا ضد مصر وبذل الوعد له بمعاونة فرنسا له ضد مصر (٢) مفضلا المهمة الأساسية التي عين من أجلها وما تفرضه عليه من تبعات تتعلق برعاية مصالح الإرسالية الكاثوليكية فحسب وكان من نتائج هذا الموقف العدائي أن تشجع الأحباش واعتدوا على الحدود الحبشية المصرية (يناير سنة ١٨٧٣) كما رفض الملك يوحنا عروض الصلح التي تقدم بها منزجر على لسان فرانز حسن (٣) كما لم يدخر سارزك جهدا في سبيل الإساءة إلى سمعة الحكومة المصرية على اعتبار أنها تشجع تجارة الرقيق (٤) وتحديه سلطة الحكومة المصرية وإثارة العراقيل في سبيل ممارسة السلطات المصرية بمصوع وظائفها عندما رفض أن يفض أختام الصناديق المرسله من ماكماهون McMahonne رئيس جمهورية فرنسا إلى الملك يوحنا في ٥ أغسطس سنة ١٨٧٣ لمعرفة محتوياتها عندما طلب منه رامن أفندي وكيل الجمرك بمصوع وذلك تنفيذا للقوانين الجمركية السائدة (٥) وإلى جانب ذلك كله تأليب الأهلالي الخاضعين للحكومة المصرية للخروج عليهما ممنا إياهم بمنحهم الحماية الفرنسية (٦) .

(١) لقد تم تعيين سارزك وكيل قنصل فرنسا بدون أخذ رأى مصر حسب العادة المتبعة وعلى هذا فقد كتبت الحكومة المصرية إلى قيوكتخدا بالقسطنطينية تنبيهه برفض الحكومة المصرية قبول تعيين سارزك لأنه سيثير الفتن ويعمل على بنر بنور لشقاق فوجد الباب العالي بحل المسألة (دفتر رقم ٤٣ عابدين ترجمة المكتبة التركية رقم ١٣٩ في ٣ ربيع أول سنة ١٢٩٢) ، من الجنب للعالي إلى إبراهيم باشا قيوكتخدا - دفتر رقم ٤٣ عابدين ورقة رقم ١١٦ ص ٢٦٣ من إبراهيم باشا إلى الجنب للعالي .

(٢) Douin : Op. Cit. T. II. PP. 425 - 426 - 427 .

(٣) كان قد التحق بخدمة كمرون الذي خلف بلوين كسكرتير له ثم استغنى عنه .

(٤) كان سارزك أغرى عبدالله وكيل منزجر بمصوع على حماية تجار الرقيق نظير حصوله على جزء من الأرباح وبذلك نتاح له الفرصة - أي سارزك - استقلال هذا للإساءة إلى سمعة الحكومة المصرية .

(٥) دفتر رقم ١٨٦٤ وورد المعية - صورة للمكتبة العربية رقم ٣١ (٢٢ جمادى الثانية ١٢٩٠ من شرقي السودان ومحافظ البحر الأحمر إلى المعية) .

(٦) دفتر رقم ١٨٦٤ وثيقة رقم ١٢ (٢٩ ربيع أول سنة ١٢٩٠ صورة المكتبة الواردة من شرقي السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر إلى المعية) .

ولم يتراخ يوحنا عن تهديد أمن الرعايا الخاضعين لمصر وذلك بإيعاز من سارزك الأمر الذى اضطر الحكومة المصرية إلى إعداد حملتين صغيرتين لتأديب يوحنا إحداهما بقيادة الكولونيل ارندروب السويدى ومهمته مهاجمة يوحنا من الشمال والأخرى بقيادة السويسرى منزجر ليزحف على إقليم العيس بين الحبشة والأملاك المصرية عند تاجورا فى الجنوب ولكن ارندروب هزم فى موقعة جندت (١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥) فى حين قتل منزجر فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وهو فى طريقه إلى أرض العيس (١) فاضطر الخديوى بتكليف الأمير حسين كامل ناظر الجهادية وستين رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى بمهمة تجهيز الحملة (٢) بعد أن وجدت الحكومة المصرية نفسها مضطرة إلى خوض غمار هذه الحرب مع يوحنا ولم تسفر جهودها فى سبيل تجنبها عن أية فائدة (٣) لإعادة الثقة لدى الأهالى فى الحكومة المصرية ولدى الدول الأوربية فى مقدرة الحكومة المصرية لأن هذه الثقة كانت قد تلاشت لدى هذه الدول بسبب بيع مصر لأسهمها فى قناة السويس (٤) .

وأسندت قيادة الحملة إلى محمد راتب أحد كبار ضباط الجيش المصرى المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة الحربية وممن نالوا شهرة واسعة بسبب مساهمته فى أعمال الفتح بالسودان (٥) وعلى أن يكون جنرال لورنج رئيس أركان حرب الحملة . كما ضمت الحملة نفرا من الضباط الأمريكيين من بينهم أميرالاي فيلد Field ودريك وبكباشى لوش Loch

(١) دكتور شكرى : مصر والسودان ص ١٤٢ .

(٢) يذكر داي أن السلطات المصرية أخذت رأى القائد الروسى فادييف Fadeieff الذى كان يقضى شتاء (١٨٧٥ - ١٨٧٦) فى مصر فى كل ما يتعلق بتجهيز الحملة وثائق نمسوية من ماير إلى وزير خارجية النمسا (١٨٧٦/٣/٢٥) .

(٣) دكتور محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية ص ٣٢ .

(٤) Dye : Moslem Egypt and Christian Abyssinia P. 159 .

(٥) كان رأى السائد إسناد قيادة الحملة إلى لورنج على أن يكون داي Dye رئيسا لأركان حرب الحملة ثم استبدل راتب بلورنج بسبب انقسام مستشارى الخديوى فى رأى إلى فريقين يتزعمه نوبار الأرمنى الجنسية وكان يؤيد إسناد قيادتها إلى ضابط أجنبى من ضباط الجيش وفريق يتزعمه اسماعيل صديق المشهور بالمفتش ويمثل الدم المصرى وشريف يمثل الدم التركى الشرعى وكنا يريان إسناد القيادة لضابط مسلم لأن الحرب إسلامية وقد انتصر الفريق الثانى ولما كان راتب يمثل العنصر التركى الشرعى من أحد أبويه على الأقل علاوة على قرابته لشريف الذى تربطه به رابطة المصاهرة فقد أسند إليه قيادتها على أن يكون لورنج رئيسا لأركان حرب الحملة .

Dye : Op. Cit. PP. 153 - 154 . - Loring : Op. Cit. PP. 329 - 333 .

ولامسون Lamson (١) وبورتر وإيرجنس Irgens على أن ينضم إليها بمجرد وصولها إلى مصوع الضباط الباقون على قيد الحياة من حملة أرندروب (٢) .

ولقد تم ترحيل القوات من السويس على دفعات حيث أبحرت الدفعة الأولى في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وتتابع بعدئذ وصول القوات المصرية ولم يكد يحل يوم ٦ يناير سنة ١٨٧٦ حتى كانت جميع قوات الحملة قد وصلت إلى مصوع (٣) .

وعلى الرغم من أن تشكيل الحملة كان أفضل تشكيل لحملة سبق إرسالها إلى الحبشة من حيث إمكانياتها من السلاح والعتاد الحربي والسهر على راحة الجند (٤) والتنظيم الدقيق وتنسيق العمل وتوزيعه بين سائر الضباط منذ اللحظة الأولى الذي روعى فيه الاختصاص والمواهب (٥) فقد كانت تقتصر إلى الرجال وذلك إذا أخذنا في اعتبارنا العدد الكبير الذي يستطيع يوحنا أن يجمعه إلا أن هذا النقص في الرجال كان يقلل من حدة خطورته لحملة في أراضى وعرة المسالك مثل الحبشة وكذلك حداثة الأسلحة التي يمتلكها الجيش المصرى بالنسبة لتلك التي يستعملها جيش الأحباش وإلى جانب ذلك فقد كانت الحملة تقتصر أيضا إلى دواب الحمل والنقل (٦) .

ولعل مما يخفف من حدة هذا النقص الملحوظ في الدواب الذي افتقرت إليه الحملة وقلة عدد رجالها ما كان يسود الحبشة وقتئذ من انقسامات داخلية حتى أصبحت مسرحا للفوضى السياسية الضاربة أطرافها وكان لهذه آثارها على أهل الحبشة حيث إن الحكام المنشقين على يوحنا والخارجين عليه كانوا يتطلعون إلى الجيش المصرى المهاجم لمساندتهم وتأييدهم لتحقيق مآربهم من حيث الوصول إلى الحكم (٧) إلى جانب هذا فقد كان كثير من الحكام

(١) لقد توفي لامسون في يناير سنة ١٨٧٦ وهو في طريقه إلى دارفور حيث انتدب . التقرير الرسمى للحملة وضع بمعرفة رجب صديق المعلنون ص ١-٢ .

(٢) التقرير الرسمى للحملة ص ٥ .

(٣) التقرير الرسمى للحملة ص ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ حولت يوم الأحد ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٩٢ .

(٤) The Egyptian Campaign P. 8 .

(٥) Dye : Op. Cit. PP. 172 - 173 .

(٦) دفتر ٢٧ صادر تلغرافات - تلغراف تركى رقم ١٦ في ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٩٢ .

Douin : T. III P. 800 .

(٧) دفتر ٣٤ عابدين واردة تلغرافات : تلغراف ٥٩٦ في ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ (١٢/١٤ سنة ١٨٧٥) من سردار العساكر المصرية إلى خيرى باشا .

المنشقين بفدون على المعسكر المصرى على رأس وفود من تابعيهم للترحيب بالجيش المصرى (١) وانتهج راتب سياسة قوية لاستغلال هذا المظهر الرائع من الترحيب من جانب الأحباش لجذبهم إلى جانب القوات المصرية ولاستمالتهم وذلك عن طريق تقديم الهدايا وتوزيعها على الشيوخ والحكام ليثير فيهم الحمية والغيرة والحماس ولكي ينضم باقى الحكام والشيوخ بنورهم إلى مصر ولتحقيق هذا الهدف بادر بطلب بعض الخلع والهدايا من سيوف وطرايش مغربية وشيلان وسروج وصلبان من الفضة وغيرها من الأشياء التى يولع بها الأحباش (٢) وتمشيا مع تلك السياسة الرشيدة أذاع منشورا إلى جميع أهالى الحبشة أوضح فيه أن القصد من دخول الجيش المصرى بلاد الحبشة ليس بقصد الفتح أو التعرض لحقوقها وقوانينها المقررة وإنما القصد إلزام وإجبار كاسا الملك يوحنا لمكوته فى عين أراضيه واحترام أراضى وحدود مصر ومن يجاوره لبلاده وأن يتعهد فى المستقبل ليس فقط لحفظ الصلح بل يتنازل عن نهب وسلب أموال أهالى مصر وغيرهم . وأن يرخص أيضا للأهالى باتصال التجارة كما أمن فيه الرجال والنساء والأطفال القاطنين فى بيوتهم وأن كل ما يحتاج إليه جنود الجيش المصرى لا يؤخذ منهم إلا بثمن طيب وتعهد أيضا باحترام كافة المساجد والكنائس والهيكل من أى ملة كانت وبدون تمييز (٣) .

وواصلت الحملة سيرها عن طريق قياخور وذلك نزولا على رأى الأغلبية (٤) حتى وصلت إلى سهل قرع ونظرا لأن لورنج لم يكن يعتقد فى جدوى الموقع الذى استقرت به الحملة فقد طلب من القاهرة استحضار المهندس الأمريكى لوكيت Lockett وأحد أعضاء هيئة أركان حرب الجيش المصرى وذلك لأنه يثق فى قدرته وكفائته ومن ثم بادر جنرال ستين رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى بإرساله فوراً وأقر لوكيت موقع المعسكر الجديد الذى أقام فيه الجيش المصرى غير أنه أشار ببناء طابية حصينة فيه وبدأ الجنود من فورهم فى إنشائها .

(١) دفتر رقم ٣٥ وارد تلغرافات : تلغراف رقم ٢٣ فى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ (١٧/١٢ سنة ١٨٧٥) من نشأت إلى خيرى .

(٢) دفتر ٣٧ عابدين وارد تلغرافات : تلغراف رقم ١٠ فى ٦ محرم سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٢/١) من السردار إلى خيرى .

(٣) للمرجع السابق .

(٤) نقسم الرأى حول اختيار أحد الطريقين وهو طريق أسمره وكان يؤيده راتب وطريق قياخور وكان يؤيده لورنج وستون من قبل بالقاهرة .
Dye : Op. Cit. PP. 201 - 202 .

وكان داي من ناحية أخرى يرى أن الطابية ليست صالحة من حيث موقعها وبنائها لحماية ممر قياخور وخطوط تموين الحملة وعدم إمكان اتخاذها مركزا لإمداد الجيش بما يلزمه مستقبلا لودعت الحال إلى تقدم الحملة إلى عدوه وعدم جدواها في أن تكون نواة معسكر قابل للتوسع هذا فضلا عن عدم ملائمتها لمواجهة الظروف الجديدة واحتمالات المستقبل التي قد تطرأ نتيجة لاحتلال منطقة الحبشة كلها لو تعذر الالتحام مع يوحنا فترة من الزمن ويذكر داي أن لوكيت قد وافق على موقع الطابية لإرضاء لراتب ولورنج دون مراعاة للموقع الصحيح الذي يجب إقامتها فيه (١) .

وهكذا يتكشف لنا مدى تضارب آراء قادة الحملة في ذلك الوقت الذي كان الملك يحشد الجيوش ويتقدم بجيشه لمهاجمة القوات المصرية بينما كان القواد المصريون وهيئة أركان الحرب من الضباط الأمريكيين يثيرون العراقيل ويضيعون وقتا ثميناً في مناقشات لا طائل فيها لقد احتكم لورنج إلى لوكيت وجاء لوكيت وأقر المكان الذي أقيم فيه المعسكر وأشار ببناء الطابية وهو المهندس المريكى المشهود بكفأته بشهادة لورنج فإذا كان هذا المهندس الأمريكى حقيقة قد أقر مكان إقامة المعسكر وأشار ببناء الطابية مراعاة لخاطر لورنج وخلافه دون مراعاة للمصلحة العامة وتلافى أى خطر أو خسائر تلحق بأفراد الحملة فإن هذه حالة لا شك يرثى لها نظرا لخيبة أمل مصر التي عقدت آمالا كبيرة على خبرة هؤلاء الضباط الأمريكيين وتمرسهم في فنون الحرب لإسناد هذه الحملة إلى هذا النفر من الضباط .

وثمة حادثة أخرى تكشف مدى إفلاس هؤلاء الضباط من كل خبرة حربية عندما عقد قواد الحملة مجلسا حربيا لمناقشة خطة الحرب (٢) حيث رأى راتب أنه طالما أن القوة التي بقرع غير كافية لعدم تجمع كل القوة بها فمن الأفضل بقاء حاميتها داخل حصونها دون الخروج لملاقاة يوحنا في السهل لاسيما وأن الاحباش لا قبل لهم على حصار القلاع (٣) .

Dye : Op. Cit. P. 252 - 261 .

(١)

Dye : Op. Cit. P. 332 .

(٢)

Dye : Op. Cit. PP. 298 - 299 - Shukry : Op. Cit. PP. 268 - 269 .

(٣)

ولكن لورنج كما هي العادة انبرى برأى مخالف وظهر فيما بعد فسادته حيث أنه كان يرى ويؤازره " داي " بطبيعة الحال خروج الجند من القلعة (١) واتباع طريقة الهجوم بدلا من اتباع طريقة الدفاع (٢) ولم يكن راتب مقتنعا بهذا الرأي ولكنه اضطر إلى قبوله نزولا على رأى الاغلبية وحفظا لوحدة الكلمة فى القيادة وتنفيذا لتعليمات السلطات المسئولة فى القاهرة بضرورة العمل بمشورة لورنج (٣) ونظرا لضيق الوقت خصوصا وأن يوحنا كان قد تحرك بقواته صوب قياخور فقرر راتب إخراج الجيش من القلعة لملاقاة الأحباش ولحلول بينهم وبين مهاجمة قياخور وكان مبعث اتخاذ هذا القرار ضرورة مواجهة يوحنا بالقوة والقضاء عليه بأسرع ما يمكن لاقترب فصل الأمطار ولتدهور الأحوال السياسية فى مصر بسبب مسألة " الهرمك " وتوقع حدوث اضطرابات فى أوروبا بين الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية وما يترتب على ذلك من آثار على الحالة السياسية الداخلية فى مصر (٤) .

ولقد بدأت القوات المصرية بإطلاق نيران مدفعيتها على الأحباش فقتلت فى قلوبهم الرعب وكادت تحل به الهزيمة ولكنهم صمدوا وتمكنوا لكثرة عددهم من الإحاطة بالجيش المصرى والتغلغل فى صفوفه وبلغت خسائر الجيش المصرى فى معركة قرع هذه جميع جنود الأورط السبع تقريبا بين قتل وجريح وأسير واستشهد عدد كبير من ضباط الحملة (٥) أما خسائر الأحباش فقد كانت باهظة إذ بلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ٣٥٠٠٠ من بينهم ثمانية من وزراء يوحنا (٦) وعلى حد قول الأمير السابق عمر طوسون لولا خفة حركة الجيش لمنى بخسائر أفدح (٧) .

(١) محظظة ١٦٠ عابدين ترجمة الوثيقة التركية بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٢٩٣ (١٠ مارس ١٨٧٦) من

راتب إلى ناظر الجهادية . The Egyptian Campaign P. 9 - Shukry : Op. Cit. P. 269 .

(٢) Loring : Op. Cit. P. 398 .

(٣) Farman : Op. Cit. P. 193 محظظة ١٦٠ عابدين : ترجمة الوثيقة التركية ١١ صفر سنة ١٢٩٣

(١٠ / ٣ / ١٨٧٦) من راتب إلى ناظر الجهادية .

(٤) دفتر ٢٧ صادر تلغرافات : تلغراف تركى رقم ٤٥٦ فى ١١ صفر سنة ١٢٩٣ (٧ / ٣ / ١٨٧٦) أمر

كريم إلى راتب .

(٥) دفتر ٢٩ عابدين وارد تلغرافات - صورة للتغراف العربى بالشفرة ٢ ص ١ فى ٥ ربيع أول سنة

١٢٩٣ (٣١ / ٣ / ١٨٧٦) من سردار العساكر المصرية إلى خيرى .

(٦) محظظة ١٦٠ ترجمة البرقية التركية بدون رقم بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٩٣ (١٧ / ٣ / ١٨٧٦) .

(٧) مجلة الجيش المصرى العدد ٣٣ ص ٣٥٢ مقال للأمير السابق عمر طوسون التقرير الرسمى للحملة

ص ٦١ حواش ١١ صفر سنة ١٢٩٣ The Egyp. Camp. P. 14 .

لقد كانت هذه الموقعة حاسمة في مصير الحملة إذ لم يستطع الأحباش بعدها إحراز أى نصر ولم يفلحوا في الاستيلاء على الطابية بسبب استماتة الجيش المصرى في الدفاع عنها وكان يوحنا يتوق لإحراز النصر النهائي بأى ثمن وبأسرع ما يمكن وذلك نظرا لما كان يعانيه جيشه من نقص فى الماء والمؤونة (١) وفشل فشلا ذريعا فى اقتحام الطابية واضطر إلى الفرار تحت وابل من القنابل تاركا وراءه القتلى والجرحى من الأحباش وفقد يوحنا في تلك الموقعة أكبر وزرائه أما خسائر المصريين في تلك الموقعة فقد كانت طفيفة .

وتمخضت تلك المعركة عن نتيجة مهمة لها وزنها إذ أسفرت عن صواب رأى راتب قائد عام الحملة والذي كان من مؤداه عدم خروج الجنود المصريين من الطابية والاعتصام بها في بادئ الأمر لولا معارضة لورنج وهو رئيس أركان حرب الحملة والمسئولة عن تنسيق خطط الدفاع واتخاذ التدابير لإحباط خطط العدو وبما يكفل حماية الجند لا تعريضهم للأخطار فجنرال لورنج حقيقة مارس الحرب عملا في فلوريدا ضد الهنود الحمر وفي الحرب المكسيكية عام ١٨٤٦ (٢) إلا أن مما لا مرأى فيه أن لكل معركة تكتيك حربي خاص واستراتيجية عسكرية تخالف غيرها من المعارك خصوصا وأن الجيش الحبشى كما هو الحال جيش غير منظم يعتمد في تكتيكة على سرعة الكر والفر ولا تتوفر له مقومات الجيوش الحديثة (٣) التى تضم هيئة أركان حرب وسلاح للمهندسين لتمهيد الطرق وإقامة الاستحكامات والحصون أو هيئة تشرف على تمويله بل يعتمد على ما تصل إليه يده أثناء زحفه في طريق تقدمه ولا يعتمد على خطوط مواصلات ووسائل برق منظمة فإذا كان راتب قد رأى الاعتصام بالطابية ورأى لورنج رأيا مخالفا لذلك وإذا كان " داي " قد لاذ بالصمت المطبق ورفض الإدلاء برأيه عندما احتكم الجدل والنقاش بين القائدين بشأن بقاء الجند بالطابية أو عدمه وذلك عندما طلب منه " راتب " الاشتراك في المناقشة وذلك على حد قوله احتراما لرأى لورنج (٤) فمن باب أولى بعد أن أسفرت النتائج عن خطأ هذا الرأى ألا يستسيغ العقل

(١) The Egyptian Campaign P. 12 .

(٢) Farman : Op. Cit. P. 194 .

(٣) محفظة ١٦٠ عابدين من السردار في غرة صفر سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٢/٢٧) من راتب إلى خيرى :

محمد رفعت : جبر للكسر في الخلاص من الاس ص ٢٤ - ٣٠ - التقرير الرسمي : حواش يوم

الجمعة ٧ صفر . Douin : Op. Cit. T. III. P. 903. The Egyptian Campaign P. 9 .

(٤) Dye : Op. Cit. P. 316 .

قبول ما يرويه في كتابه " مصر المسلمة والحبهة المسيحية " من أن الاعتصام بالطابية إنما هو بمثابة تحذير للأطفال من النزول إلى الماء طالما أنهم لم يتعلموا السباحة بعد (١) .

وهذا قول تعوزه الدقة في التعبير ويجانبه الصواب ، فالجيش المصرى له أمجاده ويحق له أن يزهر بمواقف بطولته في جميع الحروب التى خاض غمارها فى ربوع السودان والشام وبلاد العرب واليونان والمكسيك ذاتها حين أسهمت مصر فى تلك الحرب بارسال أورطة سودانية لمعاونة نابليون الثالث فى إقامة ملكية كاثوليكية (٢) حيث أحرزت انتصارات باهرة ستظل دائما وأبدا صفحات مجد وفخار فى جبين هذا الجيش وليس افتقار الجيش المصرى إلى البسالة والشجاعة وإلى قوة احتمال المشاق أو إلقاء الجنود المصريين سلاحهم عندما التقوا بالأحباش كما يدعى البعض هى سبب هزيمة هذا الجيش الباسل (٣) وما منى به من خسائر فادحة فى موقعة " قرع " بسبب خطأ رأى لورنج وأعوانه من الضباط الأمريكين وما كان يسود بين رئيس أركان حرب الحملة وقائدها العام من عدم انسجام مرجعه إلى اعتبار هيئة أركان حرب الحملة أنفسهم أصحاب الكفاءة والمقدرة ومن سواهم جهة تعوزهم الدراية والخبرة (٤) ومما عاون على زيادة حدة عدم الانسجام أيضا بين القائد العام وهيئة أركان حرب الحملة اتهام ضباط هيئة أركان الحرب بميلهم إلى الأهالى المسيحيين أكثر من ميلهم إلى الجنود المصريين ولم ينكر داي أحد مؤرخى هذه الحملة والمشتريكين فيها تلك الحقيقة وإن كان قد فسر هذا بأنه هو ولورنج كانا يدافعان عن الأحباش الذين وقع عليهم اعتداء الجنود المصريين وأن هذا الاعتداء قد يدفعهم إلى هجر السوق الذين أقاموه بجوار القلعة التى أقامها المصريون وإلى انتشار روح الكراهية ضد الحملة (٥) على أنه مما يجدر ذكره أن حوادث اعتداء الجنود المصريين على الأحباش كانت قليلة جدا بسبب جشع الأحباش ومغالاتهم فى أسعار الحاجيات (٦) .

Dye : Op. Cit.

(١)

(٢) راجع للفصل الثالث .

From : Comanos Vioo Consul to Fish N . 22 (21 - 4 - 1876) Vol. II. P. 161 . (٣)

(٤) الياس الأيوبي : المرجع السابق ص ٣١ - ٣٢ ج ٢ .

Dye : Op. Cit. PP. 219 - 274 - 311 .

(٥)

(٦) دفتر شامل الحرب للحيشية الثانية وضع بمعرفة رجب صديق المعاون : حوادث يوم الاثنين ١٩ محرم

سنة ١٢٩٣ والمسيب ٢٤ محرم سنة ١٢٩٣ ص ٤٧ - ٥٠ .

ولعل هذا الاتهام له نصيب من الصحة وذلك إذا أدخلنا في اعتبارنا أن رابطة الدين التي تربط هؤلاء الضباط الأمريكيين بالأحباش كان لها وزن كبير في تصرفاتهم خصوصا وأنه مما يعدم هذا أن قنصل عام الولايات المتحدة في مصر كان يرسم لحكومته صورة حقيقية عما يجرى من أمور ويوافيها بكافة الأنباء التي تروج والتي يحصل عليها منذ حملة منزجر وارندروب ولابد وأن تلك الأنباء التي كان يبلغها قنصل عام الولايات المتحدة في مصر لحكومته كان لها صدق لدى هؤلاء الضباط الأمريكيين خصوصا وأن الأذهان والرأى العام العالمي كان معباً ضد قيام مصر بأية حرب أو غزو لضم الحبشة إلى مصر ففي رسالة مستر "بيرزلى" إلى مستر فيش Fish. وزير خارجية الولايات المتحدة تحمل تاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٢ يذكر أن البرقيات الواردة من مصوع من مصدر موثوق به - وذلك على حد قوله - تذكر أن تحركات القوات المصرية في الحبشة تتخذ مظهرا خطيرا وأن محاولة إخضاع الحبشة المسيحية لمسيطرة مصر المسلمة يثير اعتراضات ومصاعب كبيرة (١) وتلك المصاعب بطبيعة الحال من جانب الدول المسيحية التي ترى المحافظة على استقلال الحبشة أكبر دولة مسيحية في أفريقيا حيث تجد البعثات التبشيرية حقا خصبا لمزاولة نشاطها . وفي رسالة أخرى يذكر أنه قابل شريف ووجه انتباهه إلى ما نشر بالصحف الأوربية من أنباء مستقاة من القاهرة من مؤداها أن الاعتقاد السائد في أوروبا أن الخديو يرمى إلى ضم الحبشة إلى مصر وهذا أدى إلى حدوث حالة من الذعر والانعراج لدى الذين يعطفون على استقلال الحبشة وعلى هذا الأساس فإنه يبادر بإرسال هذه الرسالة لنفى تلك المزاعم على لسان شريف الذى أكد له بأنه ليس فى النية غزو أو ضم الحبشة إلى مصر وذلك لكى يبديد ما عساه أن يحدثه ذبوع تلك الأنباء لدى الشعب الأمريكى من رد فعل عنيف نتيجة انتهاك القوات المصرية لحرمة الأراضي الحبشية (٢) .

ويتوج كل هذا اعتداد لورنج بنفسه باعتباره أنه أحد العاملين مع جنرال سكوت Scott. فى الحرب المكسيكية والمشاركين فى تحطيم أحد أبواب المكسيك (٣) الأمر الذى حدا به إلى اعتبار نفسه الأمر النهائى فى تصريح شئون الحملة ولم تجد جهود السلطات المسئولة بالقاهرة نفعا فى تصفية الجو بين رئيس أركان حرب الحملة وقائدها العام .

(١) From Beardsley to Fish N . 9 (31 - 8 - 1872) Vol. 6 P. 255 - and Its Enclosure .

(٢) From Beardsley to Fish N . 47 (15 - 12 - 1872) Vol. 7 P. 20 .

(٣) Farman : Op. Cit. P. 225 .

وليس أدل على مدى إلقاء مسؤولية فشل الحملة على عاتق لورنج مما جاء على لسان محمد رفعت أحد قواد هذه الحملة في مؤلفه " جبر الكسر في الخلاص من الأسر " لو أن السبع أورطات أى كامل العساكر التى ساقوها لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت بها ولحقها الثلاث أورطات التى كانت فى قياخور لتكون من ذلك قوة عظيمة فى الاستحكام لانهزم جيش العدو شر هزيمة ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا إلى النقطة التى أخذها العدو معسكرا ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيا لكسره وتبديد جموعه ولكن حصول الأمر بخلاف ذلك نشأ عن تفرق الكلمة وتباين الآراء (١) .

ولقد تأكدت هذه الحقيقة بصورة لا يتطرق إليها الشك فى رسالة راتب باشا إلى ناظر الجهادية حيث جاء بها " عندما جاءتنا الأنباء يوم الاثنين ١٠ صفر الجارى أن العدو زحف ميمما وجهه شطر قياخور قال الجنرال لورنج والكولونيل " داي " لنبرز من المتاريس لكى نلقى العدو وننازله بجانب من الأورط التسع المرابطة فى موقع قرع الذى هو مقرى فأجبتهما بأن خروجنا ومنازلتنا خرقا لقواعد فن الحرب وبيئت لهما أننا إن فعلنا هذا فكأنى بالعدو وقد قطع علينا خط مواصلاتنا ولكنهما أصرا وتجبرا قائلين إن جزءا كبيرا من عساكرنا قد وصل إلى قياخور فمهما كان من إسهابى لهما فى بيان أن ما لديهما من القوة العسكرية قليل ضئيل فإنهما لم يتحولا عما أصرا عليه من نيتهما الأولى فحينئذ قلت لهما إن كنتما متمسكين هذا الاستمساك برأيكما واضطرت بحكم ضيق الوقت وبمقتضى الإرادة السنية الصادرة بوجوب الاتفاق مع الجنرال لورنج فى كل عمل يتعلق بمقام رياستى ولم يقنع لورنج ودأى بخروج القوة من القلعة والتقدم صوب الناحية الشرقية من الخط الموصل بين عقبة قياخور ومحطة قرع بل صمما على ضرورة تقدم القوة إلى مسافة أكثر حتى وصلت إلى مكان غير صالح وباغتتها قوات العدو وأخذت بها من كل جانب " ويختتمها بقوله " إن السبب الوحيد فى وقوع هذا القضاء هو لورنج وأركان حربه " (٢) .

(١) يذكر محمد رفعت أن الأمير حسن هو الذى أشار بخروج العساكر من الطابية ولكن حقيقة الأمر أن ذلك كان رأى لورنج نفسه .

(٢) محظفة ١٦٠ ترجمة من التركية وبرقية تاريخها ١٤ صفر سنة ١٢٩٣ وإردة من سليمان نيازى إلى ناظر الجهادية - محظفة ١٦٠ عابدين ترجمة من التركية من السردار تايخ ورودها ١٥ صفر سنة ١٢٩٣ - وسبب استخدام شفرة نيازى استشهاد كاتبى راتب باشا فى تلك المعركة .

كان تباين الآراء وتفرق الكلمة وإصرار لورنج على إخراج القوات من الطابية وليس سداد رأى راتب فى هذا الموضوع بالذات الذى هدف من ورائه العمل بالآية الكريمة " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " [سورة البقرة آية / ١٩٥] خصوصا إذا أدخلنا فى اعتبارنا تفوق جيش يوحنا من حيث العدد وكان لزاما على هيئة أركان حرب الحملة وكلها من الضباط الأمريكيين أو أغلبها على الأقل أن تدرك تماما تكتيك وخطط العدو الذى يواجه الجيش المصرى لأن هذا من صميم عملها ولكن كان للعامل النفسانى لجنرال لورنج أثر كبير فى هذه الخسارة الفادحة التى حدثت فى موقعة قرع وذلك لأنه كان يتوق لأن يتولى قيادة الحملة أسوة بتلك الحملات الاستكشافية العلمية التى أسندت قيادتها إلى أقرانه من الضباط الأمريكيين بهيئة أركان حرب الجيش المصرى أمثال كولستون ويوردى ولوكيت وماسون وكلهم من الضباط الكونفدراليين وينتمى لورنج نفسه إلى الجيش الكونفدرالى وليس أقل منهم باعا إن لم يكن يفوقهم لأن يتولى قيادة هذه الحملة خصوصا وأن هؤلاء قد استطاعوا إنجاز ما وكل إليهم على خير وجه بفضل تعاون وتقانى الضباط المصريين الذين تفخر بهم البلاد أمثال أحمد حمدى وعامر رشدى وخليل فوزى ويوسف حلمى .

ومن المعروف أن كولستون قد اعتراه المرض أثناء حملاته بسبب مشاق الطريق ووعثاء السفر وأن الذى قام بالعبء الأكبر من هذه الحملات الاستكشافية هذا النفر من الضباط المصريين .

وثمة عامل آخر أدى إلى تلك الكارثة وهو من صميم أعمال هيئة أركان الحرب ومن صميم التكتيك الحربى وتمليه مستلزمات الدفاع وهو إهمال احتلال المرتفعات التى تقع خلف خط الجيش المصرى حتى تعوق الثقاف الجيش الحبشى حوله والإحداق به وترتب على هذا الإهمال أن استطاع يوحنا تطويق الجيش المصرى وعندئذ لم يتمكن من الاحتفاظ بمراكزه وفقدت ميسرته السيطرة على مدخل الممر الذى يربط بين قرع وقياخور وبالتالي لم يستطع إنقاذ الجناح الأيمن وكانت النتيجة أن معظم الجنود المصريين الذين نزلوا ساحة القتال قتلوا أو أسروا (١) ولكن استطاعت القوة الباقية بالطابية تحقيق كثير من أغراض الحامية إذ استطاعت إنزال الهزيمة ببوحنا وإجباره على طلب الهدنة والدخول فى مفاوضات الصلح (٢)

Dye : Op. Cit. PP. 416 - 417 .

(١)

(٢) التقرير الرسمى للحملة ص ٥٧ (حولت يوم ٥ صفر سنة ١٢٩٣) .

وظلت الجيوش المصرية محتفظة بمراكزها التي احتلتها في إقليم نيجرى بشمال الحبشة بعد أن تم انسحاب يوحنا بجيوشه صوب عاصمته عدوه (١) .

ومما يجدر ذكره أن هناك ثمة عوامل أخرى ساهمت إلى حد كبير في تلك الهزيمة أو عدم نجاح الحملة في تحقيق كل أغراضها نذكر من بينها أن الحملة لم يكن لديها الخرائط الدقيقة عن حقيقة طبيعة الطرق المؤدية إلى داخل بلاد الحبشة خصوصا وأن اسماعيل كان قد عهد إلى كولونيل لوكيت Lockett بمهمة القيام بعمل مساحة طبوغرافية دقيقة للبلاد التي سيجتازها الجيش المصرى ولكنه لم يستطع اتمام مهمته بسبب بدء العمليات الحربية في الحبشة (٢) ولا يخفى أهمية دراسة تلك الطرق والمسالك قبل بدء العمليات الحربية في بلاد وعرة المسالك مثل الحبشة .

وثمة نقص آخر بدا واضحا في تنظيم الحملة وهو مسألة الاتصال البرقى السريع بين قيادة الجيش وبين المراكز التي يتخذها الجيش ركيزة أثناء زحفه وتقدمه وذلك ليتسنى توصيل الأوامر بسرعة إلى ضباط الحملة وجنودها إذ أن الضرورة الحربية تحتّم مد مثل هذا الخط البرقى بين مصوع وقرع غير أن هذا الخط لم يتم منه غير جزء يسير وبسيط وهو الممتد بين مصوع وبعزره وعلى هذا فقد كانت الأخبار والمراسلات الرسمية تنقل بين مصوع وبعزره ببطء . وليس من شك في أن عدم إتمام هذا الخط البرقى كان له أثره البالغ في تأخير تبليغ الأوامر وما يترتب على ذلك من تأخير تركيز القوات والمؤنة في قرع (٣) .

وإذا كان لورنج بوصفه رئيس أركان حرب الحملة مسئولاً إلى حد كبير عن فشل هذه الحملة فإن هذا لا ينفي أن راتباً مسئول أيضاً بوصفه قائدا عاما للحملة على أنه ليس من ثمة خطأ ينسب حسبما تكشف عنه الوثائق وأقوال المعاصرين ممن أرخوا للحملة سوى أنه تراخى في تنفيذ الخطة التي اقترحها الضباط الأمريكيون أنفسهم وأن هذا التراخى قد تسبب عنه ما نتج من حوادث ٧ مارس سنة ١٨٧٦ مع أن سير مجرى الحوادث أسفر عن أن التحصن في القلعة والاحتماء بها كان أفضل من الخروج إلى السهل إذا استطاعت قوة صغيرة من الجيش المصرى مزودة ببعض المدافع القوية اجبار جيشا حبشيا كبيرا على الفرار دون أن يذهب

The Egyptian Campaign P. II - Shukry : Op. Cit. P. 267 .

(١)

Crabites : Op. Cit. P. 197 .

(٢)

Dye : Op. Cit. P. 410 .

(٣)

ليهاجم مركز قياخور أو غيره من المراكز غير أن هذا لا يبريء نفرا أخلا من الضباط المصريين يعتبر مسئولا عن تلك الهزيمة ونعني به عثمان رفقى الذى تراخى عن التقدم من قياخور لمساعدة قوة قرع أثناء اشتباك الجيش المصرى مع الأحباش أو تصويب نيران مدفعية البعيدة المدى من قياخور على مؤخرة الجيش الحبشى بل ترك حامية قرع تتحمل وحدها عبء القتال ضد جيش يوحنا (١) .

وعلى هذا فإن هيئة أركان حرب الحملة من الأمريكيين كانت مسئولة إلى حد كبير عن فشل هذه الحملة إذ أنها قصرت تقصيرا كبيرا ولم تقم بأداء واجبها على خير وجه بما يتفق مع خبرة أناس مارسوا الحرب عملا وهكذا ثبت بصورة قطعية إفلاس الضباط الأمريكيين من أى خبرة عسكرية أو تكتيك حربي فى أول موقعة عملية أسندت إليهم وعندما تكشف للمسؤولين هذا التقصير لم يجدوا مفر سوى التخلص منهم بالتدريج عندما حانت لها الفرصة إثر الارتباك المالى مستغنية عن خدماتهم ولم يبق منهم سوى جنرال ستون وضابط آخر (٢) ، لاسيما وأن هذه الحملة كبدت الحكومة المصرية أموالا طائلة بلغت مليوناً من الجنيهات (٣) علاوة على مبلغ مليون جنيه آخر لم تقص عنه السجلات فكانت على حد قول مستر فارمان قنصل عام الولايات المتحدة الذى عاصر تلك الحملة " القشة التى قصمت ظهر البعير " (٤) وأسهمت فى زيادة الأعباء المالية والارتباك المالى مما جعل البلاد تعجز عن الوفاء بديونها وأدى هذا بدوره إلى التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية وأفضى فى النهاية إلى خلع اسماعيل نفسه (٥) .

ولقد ظل سنينا يشغل منصبه حتى تم الاحتلال البريطانى للبلاد وأقصى هو الآخر إثر حل الجيش المصرى .

Dye : Op. Cit. P. 483 . (١)

Ibid. P. 382 - 383 - National Archives: Microfilm Publications From Ebars to Farman N . 245 (3 - 7 - 1878) . (٢)

Blue Book . Report by Cave on the Financial Condition of Eg . (٣)
presented to the House of Parliament . by Cave . London (3 - 3 - 1876) - Mc

Coan : Egypt as It Is P. 137 .

Farman : Op. Cit. P. 190 . (٤)

(٥) دكتور شكرى : مصر والسودان : ص ١٥٩ - ١٩٢ .

وثمة حقيقة مهمة ينبغي أن نشير إليها وهي أن يوحنا كان قد أوفد في يونيو سنة ١٨٧٦ مندوبا إلى القاهرة للاتفاق على مسألة تخطيط الحدود بين الحبشة والخيوية المصرية السودانية وللحصول على امتيازات معينة للأحباش تمكنهم من استخدام ميناء مصوع ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . وفي العام التالي (١٨٧٧) استؤنفت المفاوضات على يدى غوردون في هذه المرة عندما وصل إلى مصوع في طريقه إلى الخرطوم وكان قد عين حكامارا للسودان ولكن دون نتيجة بسبب إصرار يوحنا على أن يخلي المصريين بوغوص وميناء زولا وكل ساحل الدناكل أى الساحل الذى يشمل من الشمال إلى الجنوب موانى زولا وأمفيلاداد وبيلول وعصب ثم رهيطه عند باب المندب وذلك خلاف تعويض عن أضرار الحرب تنفعه مصر إلى يوحنا وظل الحال على ذلك أى دون اتفاق حتى قامت الثورة المهدية وحاصر المهديون غوردون فى الخرطوم وانسحبت الحامية المصرية من السودان الشرقى وأبرمت معاهدة (٣ يونيو سنة ١٨٨٤) بين حكومة الخديوى وبريطانيا والملك يوحنا التى جاء فيها " على جنود الخديوى الانسحاب من كسلا وامديب وسنهيت (بوغوص) عبر الأراضى الحبشية إلى مصوع فى نظير أن يقوم يوحنا من جانبه بتسهيل عملية الانسحاب هذه " وبذلك أعيدت بوغوص إلى الحبشة (١) .